بعد سنوات

بقلم : ثروت أباظة

فى اوروبا الشقراء كان يسير مفتونا بسمرته وبعيونه السود وبقامته الفارعة . وفى سويسرا الباردة كان هو مفتونا بدمائه الفائرة الحارة . وكانت النساء يتهافتن على نظرة منه يعقبها موعد . واحس هو بقيمة نفسه فاصبح يختار فى دقة شديدة وفى بطء وافق مطمئن . الا واحدة لم تكن تحفل به فما انتظرت منه نظرة ولا موعدا . كانت امينة المكتبة فى كلية الحقوق . وكان لابد له ان يذهب كثيرا الى هذه المكتبة فمنها كان يعد الدكتوراه التى فارق مصر من اجلها . وكانت امينة المكتبة فتاة تكبره بعض الشىء ولكنها كانت فى زهرة الشباب الصارخ الأخاذ ، فى عينيها أنشودة حالمة وفى شفتيها قبلة نابضة ، كان يحس كلما نظر اليها انها عرفت الحياة وانها لم يسرها ما عرفته من الحياة فكان يريد ان يسألها ما بك ولكنه لم يكن يستطيع فقد كانته لا تكلمه الا فيما يتصل بما يطلب من كتب . واذا قال صباح الخير كانت اجابتها باهته محايدة بلا اقبال أو تشجيع . فاذا اراد ان يجعل من موضوع كتاب طريقا له ان يقول شيئا وجدها بارعة فى وضع الجملة المناسبة لتقفل الموضوع نهائيا .

ويضيق بهذا الموقف منها ويوشك أن يعزم فى دخيلة نفسه أن يقطع ما بينه وبينها ولكنه لا يجد شيئا بينها وبينه حتى يقطعه . فتثور نفسه . انه يريد ان يكون بينه وبينها شىء اى شىء .. أيحبها لم يكن يدرى .. أيكرهها .. لعله .. أنه يضيق بأمرها لا شك فى ذلك . ويفكر فيها ويطيل التفكير . ويذهب كل يوم الى المكتبة فيلتقى بجمالها العربيد الصارخ وبهدوئها الذى جعلت منه سياجا من الثلج البارد الباهت . ويأخذ ما يريد من كتب أو يرد ما أخذ فلا حديث بينهما . ويخرج ثائرا لا يستطيع أن يجد لثورته منفرجا .

وفى يوم ذهب الى السينما . وكان وحيدا وفجأة وقعت عليها عيناه . انها هناك ومنذ وقعت عليها عيناه لم يرفعهما عنها . فما هى الا لحظات قلائل حتى مالت على الكرسى بجانبها ونظر الى الكرسى بجانبها فوجد طفلة صغيرة لم يصبر وانما اندفع خارجا من السينما واشترى اشياء للأطفال ، أشياء كثيرة. لم يكن يعى شيئا الا أن يشترى كثيرا بكل ما تتيح له النقود التى بجيبه أن يشترى .. شكولاته وعروس صغيرة تغمض عينيها وتفتحهما وتموء بكلمة ماما ، وقردا يقرع طبلته ويهز راسه .. و .. ونفدت النقود . وعاد الى السينما فوجدها قد أظلمت فقعد فى كرسيه ينتظر الاستراحة وهو لا يعى شيئا مما يرى .. ومر العرض امامه لحظات بطيئة .. بطيئة وهو يتقافز على كرسيه من فرط اللهفة . واضيئت الأنوار بعد لأى . وأمسك هو اللفافة وذهب الى الكرسى بجانب الفتاة الصغيرة وقعد وقال للطفلة :

ـ مساء الخير .

ونظرت اليه الطفلة ثم نظرت الى أمها وكأنها تسألها ماذا افعل فى هذا الغريب ونظرت اليه الأم وابتسمت وقالت وقد داخل صوتها بعض دفء .

ـ مساء الخير .

وكأنما احس أن الجليد يوشك أن يذوب فقال لها فى جد .

ـ يا سيدتى أنا أحيى هذه الطفلة الجميلة واريدها هى أن تجيب .

ونظرت الفتاة الى ابنتها وابتسمت فابتسمت الطفلة ونظرت الى توفيق .

مساء الخير .

وبدأ توفيق يضع يده فى اللفافة واخرج الشكولاته وقدمها اليها وعادت الطفلة تنظر الى أمها واومأت الأم لابنتها أن تأخذ الهدية فأخذتها وهى تقول فى صوت طفل اشكرك .

ثم وضع يده فى اللفافة واخرج العروس ولم تنظر الفتاة الى أمها وانما مدت يدها فى لهفة وهى تقول :

أهذه لى .

وقالت الأم وقد عاود صوتها البرود .

ـ لا .

وذهلت الفتاة ذهولا حزينا وسارع توفيق قائلا :

ـ وانت كيف تعرفين انها ليست لها .. اتعتقدين اننى اشتريت هذه العروس لى ام ترانى اشتريتها لك أنت .

ورأى على وجهها مطالع ابتسامة ولكنها قالت :

ـ لا يجوز أن تأخذ اكثر مما اخذت

ـ وانت يا سيدتى ما شأنك .. اننى اقدم لصديقتى الجديدة الهدايا التى ارى من المناسب أن اقدمها وهى حرة ان تقبل ما تشاء أو ترفض ما تشاء .

ـ لا .

وقال توفيق فى جد .

ـ نسألها هى ..

ونظرت الأم الى ابنتها فوجدت اللهفة فى عينيها ولم ينتظر توفيق وانما قال للطفلة :

ـ هيه .. هل تقبلين هديتى .

واختطفت الطفلة عروسها واحتضنتها ونظرت الى أمها نظرة فيها هلع وفيها رجاء وفيها رغبة ورأت الأم فى عينى ابنتها كل هذه المعانى فلم تملك نفسها من ان تبتسم وتقول لها فى عطف .

ـ الا تقولين شكرا على الأقل .

ونظرت الطفلة الى توفيق وهى لا تكاد تصدق اذنيها وراحت تقول :

ـ شكرا .. ألف شكر .

وقال توفيق :

ـ جعبة الحاوى لم تفرغ بعد .

وقالت الأم :

ـ وماذا ايضا .

وقال توفيق .

ـ ياسيدتى ارجو الا تتدخلى فيما لا يعنيك .. هذا أمر بينى وبين هذه الآنسة .

واخرج القرد من اللفافة . وانبهرت الطفلة ومدت يدها ولكن يدها توقفت فى منتصف الطريق ونظرت الى أمها تلك النظرة التى تخلط الهلع بالرجاء بالرغبة وابتسمت الأم واختطفت الطفلة القرد وقالت الأم .

ـ هذا كثير .. كثير جدا .. انت طيب غاية الطيبة .

ـ وانت لماذا لم تكونى طيبة ابدا ..؟

وضحكت وهى تقول :

ـ تقصد فى عملى .

ـ نعم .

ـ تصور لو أننى أصبحت طيبة مع جميع الشبان الذين يدخلون الى المكتبة.

ـ مع جميع الشبان ؟!

ـ كل شاب منهم يظن نفسه أجمل انسان فى الدنيا ويعتقد أن سحره لا يقاوم وانا لا أطيق الغرور .

ـ لعلك لا تطيقين الشبان .

ـ أبدا ولكن ..

وقبل أن تكمل جملتها أطفئت الأنوار وبدأ العرض وصمتت مادلين وصمت توفيق وراحت فيكى تهز العروس حينا وتداعب القرد حينا آخر وتأكل قطعة من الشكولاته فى حين قالت والأم تحس بالسعادة التى تغمر ابنتها .

وانتهى العرض وقال توفيق فى بساطة .

ـ كنت أحب أن أدعوك أنت وفيكى الى العشاء ولكننى انفقت كل نقودى على صديقتى .

وقالت مادلين :

ـ فأنا أدعوك الى العشاء .

ـ وأنا أقبل .

ـ فى منزلى .

ـ طبعا سأتعرف بزوجك .

وصمتت مادلين لحظات ثم قالت :

ـ وما الباس .

ـ لا بأس .

ـ اذن فهيا بنا .

ـ هيا بنا .

وذهب الى منزلها وتركته يلعب مع فيكى وراحت هى تعد العشاء ولم يطل غيابها فسرعان ما عادت وفى يدها أكل فيكى وأخذت فيكى الى سريرها ثم عادت بعد قليل تحمل الأطباق فقام توفيق يعاونها حتى اذا أعدت المائدة قالت له :

ـ والآن الى العشاء .

ـ ولكن الا ننتظر .

ـ تقصد زوجى .. ؟

ـ نعم .

ـ انه لن يأتى .

ـ هل أنت واثقة .

ـ كل الثقة .

ـ أمرك .

وجلسا وتناولا العشاء وقالت وهى تشعل سيجارة .

ـ أتدرى أننى أحببتك .

ـ لماذا .. ألست واحدا من هؤلاء الشبان الذين تكرهين .

ـ لا .. لقد أحضرت لابنتى اللعب وجئت معى الى البيت وانت تظن اننى أعيش مع زوجى . فلم يدفعك الى ما فعلت الا طيبة حقيقية تملأ نفسك اننى أحبك .

ـ ألا تعيشين مع زوجك .. ؟

ـ افترقنا منذ فيكى فى المهد .

ـ يا له من غبى .

ـ كيف تعرف .

ـ أغبى انسان فى الدنيا .

واصبحت صداقة .. وقليلا ما دامت الصداقة فاذا هى حب .. حب عارم آخذ لا يبقى على شىء .. أحبها بكل دمائه وكل شبابه وكل آماله وكل احلامه .. أحبها كالشباب.. كالآمال.. كالرؤى .. كالنظرة الى الأيام الوردية فى حياة فتى غض نضير الأوقات . وأحبته .. وقال لها يوما .

ـ أتتزوجيننى .

ودون مهل من تفكير أو ريث من تؤدة.

– قالت أحبك .

ونسى اباه وماذا هو فاعل ان عرف ، ونسى أمه ، ونسى اخاه ونسى اخته .. او هو قد تذكر هؤلاء جميعـــا ولكنه يحب .. شـــاب مخلص وفى نقى ملىء بالصراحة والشباب يحب .. قال لها :

– أنهى دراستى بعد شهرين .. بعد شهرين سأسافر وحـــدى واترك لك اشيائى هنا وبعد شهرين واســـبوع ستجدين منى خطابا اليك ان تلحقى بى انت وفيكى وبعد شهرين وثمانية ايام نصبح زوجين .

ومر الشهران وعاد الى القاهرة .. وعاوده الأريج المصرى .. وكأنما كان فى غيبوبة ثم أفاق .. ما مصير زوجتـــه السويسرية هنا . وما مصـــيره هو معها .. سيعيشان فى غربة سيعتزلان مصر ويقيمان من بيتهما قطعة من سويسرا منفردة وحيـــدة لا هى مصرية ولا هى سويسرية وانما شىء شاذ فى غير موضعه لم لم يقل لأبيه شيئا ولم يقل شيئا لغير ابيه .. أفاق على اريج مصر وحدها .. وراحت الخطابات تترى من مادلين ومر الأسبوع والأسبوعان .. ثم مر الشهر والشهران والخطـــابات لا تنقطع وهو يجيب باملاء من عقله .. مكان جـديد منه لم تعرفه مادلين فقد عرفته فى قلبه وفى مشاعره ولم تر عقله ابدا .. فهى تراه اليوم فى خطاباته .. ويمر العـام وتصبح الخطابات منها وكأنها المـــاء فى المجرى جف ماؤه بعد أن كان جياش الماء صاخبه . ثم تنقطع الخطابات ويجف النبع ويصبح حصى .

وتعرف توفيق بابنة عمه .. كانت فتاة جديدة عليه تركها وهى طفلة فى الثانية عشر ووجدها فتاة فى السابعة عشر .. ودون ان يتكلم خطبهـــا ابوه ودون أن يتكلم وافق على الخطبـــة . الشىء الوحيد الذى فعله حين أخبره ابوه انه خطب الهام انه قام الى درج مكتبه واخرج خطابات مادلين ومزقها جميعا واحس انه اصبح خالصا لزوجته بجميعه .. بماضيه وحاضره ومستقبله.

ومرت بهما الأعوام كما تمر بالأزواج السعداء .. قليل من العتاب وقليل من المفاضبة وقليل من الغيرة وقليـــل من المشاكل وقليل من الأطفال وقليـــل من المرح وقليـــل من الأنس وقليـــل من الاطمئنان وقليل من القلق .. ومـــرت الأعوام .

وفى يوم جلس الى مكتبه .. لقد مرت به سنوات طويلة لم ينظم الأوراق فيه.. أخرج الأوراق وراح يقلبها ويقلب معها سنين حياته .. ذكريات كثيرة تحملها أوراق مكتبه .. وفجأة وجد خطابا من مادلين ومعه صورة لها ولابنتها .. كان هذا الخطاب قد هرب منـــه واختفى يوم مزق اخوانه ..

قرأ توفيق الخطاب وحين انتهى منه ونظر الى الصورة وجد عينيه لاتستطيعان الانعام فيها .. كانت هنـــاك دموع .. لعلها فيض من السنين يحول بينه وبين عينيه أن ينعما النظر .. مسح الدمعات ولم يستطع ان يمسح السنين . وعاد الى الخطاب ثم عاد الى الصورة .

وفى صمت طوى الخطاب فى عنـــاية ووضع الصورة فى داخـــله وبحث عن ظرف وردى واودعه الخطاب والصورة ثم لم يقفل الظرف وانما وضعه فى حنان فى أعماق الدرج وترك الدرج خاليـــا الا منه .